



التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكمة تعني بقضايا الأدب والنقد



تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

كلية الآداب والعلوم والإنسانية والاجتماعية

جامعة باجي مختار/عنازة (الجزائر)

ديسمبر 2008

العدد الثالث

التواصل الأدبي

مجلة نصف سنوية محكمة تعنى بقضايا الأدب والنقد



تصدر عن مخبر الأدب العام والمقارن

كلية الآداب والعلوم والإنسانية

جامعة باجي مختار/عنابة (الجزائر)

إدارة المجلة:

مدير المجلة: أ.د عبد المجيد حنون

رئيس التحرير: د. محمد بلواهم

أمانة التحرير:

-د/ نظيرة الكتر

-أ. هجيرة لعور

العنوان: مخبر الأدب العام والمقارن، كلية الآداب

والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة،

ص ب 12. عنابة 23000/الجزائر

الهاتف والفاكس: 038-84-51-49 / 038-84-75-25

البريد الإلكتروني : ettaoussouleladabi@yahoo.fr

الترقيم الدولي الموحد للمجلات : ISSN 1112-7597

ديسمبر 2008

العدد الثالث

أعضاء الهيئة العلمية:

رئيس التحرير :

د. محمد بلواهم

الأعضاء :

1- أ. صالح ولعة

2- د. إسماعيل ابن صفية

3- د. نسيمه عيلان

4- أ. عمار رجال

5- د. علي خفيف

6- د. نظيرة الكتر

7- أ. هجيرة لعور

أعضاء الهيئة الاستشارية:

1- أ. د مختار نويوات (جامعة عنابة)

2- أ. د عبد الحميد بورايو (جامعة الجزائر)

3- أ. د الطيب بودربالة (جامعة باتنة)

4- أ. د عبد الواحد شريفي (جامعة وهران)

5- أ. د عز الدين مخزومي (جامعة وهران)

6- أ. د حبيب منسي (جامعة سيدي بلعباس)

7- أ. د عيسى بريهمات (جامعة الأغواط)

8- أ. د أحمد منور (جامعة الجزائر)

شروط النشر في المجلة:

- 1- تنشر المجلة البحوث والدراسات العلمية التي تعنى بقضايا الأدب العام والمقارن والنقد والترجمة، وتتسم بالعمق والجدة والأصالة.
- 2- ترسل الدراسات في نسختين وقرص مرّن، ويكون حجم المقال في حدود (20) صفحة مقاسها 24×16، مع كتابة الإحالات والمراجع مرقمة في آخر المقال.
- 3- تكتب المقالات بخط (Traditional Arabic) من عيار 16، وبرنامج (Microsoft Word) أو نظام (RTF).
- 4- ينبغي أن ترفق المقالات بملخص تحدد فيه الإشكالية وأهم العناصر والأهداف المتوخاة من الدراسة.
- 5- تخضع المقالات للتحكيم العلمي من الهيئة العلمية.
- 6- تقوم هيئة التحرير بإخطار أصحاب المقالات في حالة عدم النشر لسبب من الأسباب.
- 7- المقالات لا ترد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- 8- المقالات المنشورة لا تعبر بالضرورة عن المجلة.
- 9- يتحصل أصحاب المقالات على نسخة من المجلة وخمس مستلّات من المقال.
- 10- ترسل المواد إلى رئيس تحرير مجلة التواصل الأدبي، مخبر الأدب العام والمقارن العنوان: كلية الآداب والعلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة باجي مختار عنابة، ص ب 12- عنابة 23000 / الجزائر.

الهاتف والفاكس: 038-84-51-49 / 038-84-75-25

البريد الإلكتروني: ettaoussouleladabi@yahoo.fr

الفهرس

	وليد بوعديلة
07	خطاب النقد العربي وأسئلة العلاقة مع الآخر.....
	عمار رجال
30	غوته والثقافة العربية.....
	راضية بوبكري
47	نظرية الأفعال اللغوية وتحليل الخطاب.....
	عائشة رماش
66	مكونات الصورة السردية وموضوعاتها في قصص الأطفال.....
	ماجدة بن عميرة
80	مدام بوفاري "رواية القرن التاسع عشر".....
	زهرة خفيف
92	واقعية الرواية الجزائرية.....
	عبد الرحيم مراشدة / عبد الباسط مراشدة
113	الأنثوي الذكوري في النص الروائي مكاتيب النارنج وذاكرة الجسد نموذجا.....
	هجرية لعور
153	الرواية والأسطورة - إبراهيم الكوني أمودجا.....
	سلوى النفزي
171	مريم أم المسيح: من النص الإنجيلي إلى النص القرآني.....
	كمال عطاب
196	تداخل الخطابات في المقامات.....
	موسى مريان
213	ابن رشيق القيرواني وشعره.....
	سامية عليوي
236	أسطورة أريان.....

ابن رَشِيقِ القَيرواني وشعره

(390 - 456هـ/1000 - 1064م)

موسى مريان

جامعة 20 أوت 1955م -

سكيكدة.

أولاً - ديباجة:

يحظى الأديب الناقد ابن رَشِيقِ القَيرواني بشهرة علمية واسعة بين المهتمين بالأدب والتقد العربيين. وشهرته ناقدًا أكثر منها - فيما أحسب - شاعرًا. ويرجع ذبوع صيته العلمي في المقام الأول - بلا ريب - إلى كتابه التَّقدي النَّفيس والشَّهير " العُمدة "، الَّذي يُعدُّ بحقَّ عُمدة في صناعة الشَّعر ونقده.

وإذا نحن بحثنا عن أخباره في كتب التَّراجم العربيَّة، المغربيَّة منها والمشرقيَّة على السَّواء، نجدُها - على الرَّغم من شهرته - قليلة جدًّا، وأكثرها منقول مُعاد. ولا تعدُّ قلة أخبار ابن رَشِيقِ القَيرواني في المصادر العربيَّة سمة خاصَّة به هو فقط، وإنَّما هي ظاهرة عامَّة يتقاطع فيها أكثر أدبائنا وعلمائنا ونهبائنا القدامى، إن لم أقلَّ كلَّهم. ولذلك فما أشبه الباحث عن سيرة علَم من أعلامنا القدماء إلَّا بعالم الآثار، الَّذي يبحث وينقُب في موضع الآثار، وينبُش القطع ويجمعها، ويصقلها ويجلوها، ثمَّ يجتهد، بعد ذلك، في إرجاع كلِّ قطعة إلى مكانها لإعادة بناء التَّحفة الأثريَّة، وإظهارها في صورتها الأولى الَّتِي أنشأها صانعُها عليها، والهيئة الَّتِي أرادها لها. هذا على ما بين سيرة الإنسان والشَّيء الأثري الماديِّ من فرق واختلاف. وسأحاول، في الصَّفحات القليلة التَّالية، التعرُّيف بابن رَشِيقِ القَيرواني تعريفًا موجزًا، وذلك بالاختصار على الأحداث البارزة في حياته.

ثانيًا - حياته :

هو « حَسَنُ بْنُ رَشِيقٍ، مَوْلَى مِنْ مَوَالِي الْأَزْدِ »⁽¹⁾. هذا كل ما ذُكر في اسمه ونسبه في كتاب " أنموذج الزمان ". ولعل ما يثير الانتباه في سلسلة نسبه هو قصرها الشديد، وانقطاعها - على خلاف العادة - عند أبيه رشيق وعلاقته بالأزد. وأضاف القفطي (ت 646 هـ): « وأبوه رشيق مملوكٌ روميّ لرجُلٍ من أهل الحمديّة⁽²⁾، من الأزد⁽³⁾ ». وتظهر الإضافة في الإشارة إلى طبقة أبيه رشيق الاجتماعية (مملوك)، وفي أصله العجميّ الأجنبيّ (روميّ). وإذا كان الأصل الروميّ لرشيق أمرًا مؤكدًا بإقرار ابنه حسن، في ردوده على منافسه ابن شرف القيروانيّ، كقوله⁽⁴⁾:

أما أبي فرشيّق، لستُ أنكره قل لي أبوك، وصورة من الخشب.
وقوله له أيضًا: « وأما أنا فنصر الله وجه هذا الشيخ فيّ، وأتم به النعمة عليّ، فما أبغي به أبًا، ولا أرضى بمذهبه مذهبًا، رَضِيتُ به روميًّا، لا دعيًّا، ولا بدعيًّا »⁽⁵⁾. فإن أساس انتسابه إلى الأزد يبقى - فيما أرى - مسألة غير واضحة. ألا تكون علاقة الإجارة - مثلاً - أو غيرها من الروابط، وليس الاسترقاق، هي الأساس الذي قام عليه ولأء رشيق الروميّ إلى ذلك الرجل المسيليّ الأزديّ، وانتسابه إليه ؟.

هذا فيما يخصّ أباه رشيقًا، وأمّا أمّه، ونسبها، ودورها في نشأته وحياته فلا نعرف عن ذلك شيئًا، وكذلك الحال فيما يتصل بأسرته وأقاربه. توزّع عمرُ ابن رشيق بين أربع مدن. وتمثّل إقامته بكلّ واحدة منها مرحلة واضحة ومميّزة في حياته، وهي: المسيلة، والقيروان، والمهديّة، ومازر بجزيرة صقلية.

1 - مرحلة المسيلة (390-406 هـ):

تضمّ هذه المرحلة الستّ عشرة سنة الأولى من عمره - تقريبًا - التي قضاها في مدينة المسيلة، مسقط رأسه.

وكلّ ما يُعرف عنه في هذه المرحلة المهمّة، الّتي تمثّل طفولته وبداية شبابه، هو ما ذكره في سيرته، قال - بصيغة الغائب - : «وُلد بالمحمّديّة سنة تسعين وثلاثمائة، ونشأ بها، وتأدّب بها يسيراً، وعلمّه أبوه صنّعه وهي الصّياغة، وقال الشّعْر قبل أن يبلغ الحُلُم، وتاقَتْ نفسه إلى التّريّد من ذلك وملافاة أهل الأدب، وقدم إلى الحضرة (6) سنة ستّ وأربعمائة» (7).

وذكر ابن بسّام الأندلسيّ (ت542هـ) بعضاً ممّا ذكر ابن رشيق القيروانيّ، قال: «بلغني أنّه ولد بالمسيلة، وتأدّب بها قليلاً، ثمّ ارتحل إلى القيروان...» (8). ونقل ابن خلكان (ت681هـ) ما قال ابن بسّام الأندلسيّ، ثمّ أضاف: «وقال غيره : وُلد بالمهديّة» (9). وردّد ذلك الصّفديّ (10) (ت764هـ)، وابن العماد الحنبليّ (11) (ت1089هـ).

وينبغي ألاّ نأخذ في مكان مولده إلّا بما قال هو عن نفسه، وبما ذكر ابن بسّام الأندلسيّ، وأمّا من قال أنّه وُلد بالمهديّة من القدماء، فالراجح أنّه تصحّف اسم المحمّديّة، أو وجده مصحّفاً.

وممّا يستوقف النظر في حياة ابن رشيق بالمسيلة أربعة أمور:

أ - تأدّبه اليسير: ويعني ذلك أنه حفظ القرآن الكريم أو جزءاً يسيراً - على الأقلّ - منه، وتعلّم الخط (الكتابة)، ثمّ شدا شيئاً من الأدب، والمقصود به - كما فهمه العلماء القدماء - «اللّغة، والتّحو، والمعاني، والبيان، والبديع، والعروض والقافية، وآيام العرب وأنسابها، وتواريخ الناس، ومشاركة ما يمكن من العلوم قاطبة» (12). وذلك ما ردّده ابن خلدون (ت بالقاهرة 808هـ) في قوله: «إنّهم إذا أرادوا حدّد هذا الفنّ [أي علم الأدب] قالوا: الأدبُ هو حفظُ أشعار العرب وأخبارها، والأخذُ من كلّ عِلْمٍ بطَرَفٍ» (13).

ومن شيوخ الأدب والتّقد المشهورين، الذين تتلمذ لهم ابن رشيق بالمسيلة عبد الكريم النّهشليّ (14).

ب - تعلّمه الصّياغة : ونستنتج من ذلك أنّ أباه كان رعوفاً به، اهتمّ بتعلّمه وتأدّبه، ثمّ علّمه حرفة الصّياغة وأسرارها، ليكون مزوّداً بسلاح آخر، يساعده على

خوض معترك الحياة، ومواجهة شدائد الدهر، و« قيمة كل امرئ ما يُحسِنُ »، كما قال عليّ بن أبي طالب، رضي الله عنه.

ج - قوله الشَّعر صغيراً : ويدلّ ذلك على تولّعه - منذ الصَّغر - بالشَّعر، ورغبته في التّرقّي في مدارج الإبداع حتّى يبلغ ما بلغه الشّعراء الكبار من رفعة، واشتهار، وخلود.

د - تَوَقَّأْتُهُ إلى المزيد من التّأدّب وقول الشَّعر : ويفهم من ذلك أنّ ما تعلّمه على أيدي مقرئي المسيلة ومؤدّيها أرضي ميوله التّفسيّة، ولكّنه لم يعد كافياً لإروائه ظمئه العلمي وطموحه؛ ولذلك نازعته نفسه إلى الانتقال إلى فضاء ثقافي أرحب، وأكثر خصباً، يزخر بشيوخ العلم، والأدباء الأفاضل.

وكانت رغبته تلك كالبدرة التي نبتت ونمت - بمرور الأيام - حتّى أزهرت، وتضوّع أريجها، وأتت أكلها. وكان قول الشَّعر - كما رغب - صنعته، ومحور تفكيره، ونشاطه في حياته كلّها.

2 - مرحلة القيروان (406 - 449 هـ):

تبدأ هذه المرحلة بوصول ابن رشيق القيروان سنة 406 هـ، وهو غضّ الشباب، وتنقضي بخروجه منها وانتقاله إلى المهدية، سنة 449 هـ، وقد غازل السّتين من عمره. وهي أطول مراحل حياته، وأهمّها من حيث التّحصيل العلمي، وكثرة التّحارب، ووفرة الإبداع الأدبي، ونضج الإنتاج التّقدي.

ويبدو أنّ ابن رشيق اختار القيروان مقراً لرحلته؛ لأنّها كانت عاصمة الإمارة الزّيريّة الصّنهاجيّة، وموطن العلماء والأدباء، ومركزاً ثقافياً مزدهراً، لا يقلّ شأنًا عن بغداد وقرطبة. ويبيّن المؤرّخ عبد الواحد المراكشي (ت 648 هـ) دور القيروان العلمي في بلاد المغرب بقوله: « وكانت القيروان هذه، في قديم الزّمان - منذ الفتح إلى أن خرّبتها الأعراب - دار العِلْم بالمغرب، وإليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة أهله في طلب العلم... »⁽¹⁵⁾.

أقبل ابن رشيق، في القيروان، يقيسُ اللغةَ العربيَّةَ وعلومها، وما يوافق ميوله الأدبيَّة. ومن علمائها المشهورين الذين تتلمذ لهم، وأخذ عنهم : ابن البقال الضَّريُّ « وكان من علماء اللغة والنحو، بصيراً بغيرهما من العلوم »⁽¹⁶⁾، والقَزَّاز التميمي، وكان أيضاً من علماء اللغة والنحو، وأبو إسحاق الحُصَري، وكان لغوياً وأديباً شاعراً. هذا بالإضافة إلى ما كان يقع بين يديه من مؤلفات علماء المغرب والمشرق.

وكان ابن رشيق يتشوّف - بلا شك - إلى البلاط الزيري الصنهاجي، ويدرك ما يطرأ على حياته من رفعة، وجاه، ورفاه، إذا وصل إلى الأمير المعز بن باديس، وحظي بتقريبه.

وفي سنة 417هـ، شيد الأمير المعز « منظرَةً جليلةً أنيقةً »⁽¹⁷⁾ بصيرة، فاغتنم ابن رشيق المناسبة، ورفع إليه قصيدة مدح وتهنئة، يذكر فيها تلك المنظرَةَ (القصر)، منها قوله في نسيبها⁽¹⁸⁾ [الكامل]:

دُمْتُ لِعَيْنِكَ أَعْيُنُ الْغَزْلَانِ قَمَرٌ أَقَرُّ لِحُسْنِهِ الْقَمَرَانِ
وَمَشَتْ، فَلَا وَاللَّهِ، مَا حَقَفُ النَّقَا مِمَّا أَرْتُكَ، وَلَا قَضِيبُ الْبَانِ
وقوله في مديحها:

يا ابْنَ الْأَعْزَةِ مِنْ أَكَابِرِ حِمِيرٍ وَسُلَالَةِ الْأُمْلَاكِ مِنْ قَحْطَانِ
مِنْ كُلِّ أَبْلَجٍ أَمِيرٍ بِلِسَانِهِ يَضَعُ السَّيْفَ مَوَاضِعَ التَّيْجَانِ
ومنها في وصف المنظرَةِ:

وَحَلَلْتَ مِنْ عَلَيَاءِ صَبْرَةٍ مَوْضِعًا أَكْرَمَ بِهِ مِنْ مَوْضِعٍ وَمَكَانِ
زَادَتْ بُنَاهُ عَلَى الْخَوَرْتِ بِسَطَةٍ وَحَوَتْ أَعَزَّ حِمَى مِنَ الثُّعْمَانِ
وَعَدَا ابْنُ ذِي يَزَنِ بِسِفْلٍ دُونَهُ هِمَمًا، نَزَلْنَ بِهِ عَلَى غُمْدَانِ.

وعندما تحقّق الأميرُ المعزُ مكانة ابن رشيق « من الأدب، ومحلّه من قول الشعر قرّبه، فامتدحه بقصيدة صار بها في جملة، ونُسب لأجلها إلى خدمته، ولزم ديوانه، وأخذ الصلّة منه، وحُمِلَ على مركب يميّز به، فمن قوله في مديحها]

البسيط]:

لُذْنُ الرِّمَاحِ لَمَّا سَقَى أَسِنَّهَا مِنْ مُهْجَةِ الْقَيْلِ أَوْ مِنْ مُهْجَةِ الْبَطْلِ
لو أَوْرَقْتُ مِنْ دَمِ الْأَعْدَاءِ سُمُرُ قَنَا لِأَوْرَقْتُ عِنْدَهُ سُمُرُ الْقَنَا الذُّبْلِ
إِذَا تَوَجَّهَ فِي أَوَّلَى كِتَابِهِ لَمْ تَفْرِقِ الْعَيْنُ بَيْنَ السَّهْلِ وَالْجَبْلِ
فَالْجَيْشُ يَنْفُضُ حَوْلَيْهِ أَسِنَّهُ نَفَضَ الْعُقَابُ جَنَاحَيْهَا مِنَ الْبَلْلِ
يَأْتِي الْأُمُورَ عَلَى رِفْقٍ وَفِي دَعَا عَجَلَانَ كَالْفَلَكَ الدَّوَّارِ فِي مَهَلٍ⁽¹⁹⁾.

وبلغ ابن رشيق في كنف الأمير المعز، ووزيره أبي الحسن عليّ بن أبي
الرجال ما كان يطمح إليه. وتدلّ إقامته الطويلة بالقيروان على أنّه وجد فيها البيئة
الرحبة والصّالحة لإشباع نهمه العلمي، ورعاية موهبته الأدبيّة، وقدراته الفكريّة،
صرفه عن التفكير في الارتحال إلى غيرها من الحواضر الأخرى.

أثمر نشاط ابن رشيق الأدبي، وبحثه في ميدان اللغة والتّقد كتباً ورسائل
كثيرة، الموجود منها والمطبوع ما يلي:

1- كتاب العُمدة في محاسن الشّعْر وآدابه ونقده. وهو أجلّ كتبه، ومن
أجود ما ألّف في صناعة الشّعْر؛ ولذلك عُدَّ تاج الكُتُب المصنّفة في
موضوعه⁽²⁰⁾.

2- كتاب أنموذج الزّمان قي شعراء القيروان. وهو كتاب تراجم، ترجم فيه
ابن رشيق تسعة وتسعين (99) شاعراً من شعراء المغرب، وخصّ نفسه فيه
بالترجمة الأخيرة، وعددها (100).

3- رسالة قُرَاضة الذّهب في نقد أشعار العرب. وهي في موضوع السّرقات
الشّعريّة.

4- ديوان شعر.

أقدم الأمير المعز، في سنة 440 هـ، على قرار سياسي ومذهبي جريء
ولكنّه ثقیل وفادح. ويتمثّل في قطع الدّعوة للأئمّة الفاطميّين بالقاهرة، وتحويلها إلى

الخلفاء العباسيين ببغداد. وكان لذلك التحوّل الرّسمي من المذهب الشّيعي (الإسماعيليّ) إلى المذهب السّنيّ أسوأ العواقب عليه وعلى إمارته.

ولمّا علم الخليفة الفاطميّ المُستنصر بالله⁽²¹⁾ بقرار المعزّ، وببُذِ المغاربة لمذهب الفاطميّ استاء كثيراً. ولم يجد ما يعملُه أفضل ممّا أشار عليه به وزيره نيازوريّ. وتقضي إشارة الوزير بالسّماح للأعراب من بني هلال وبني سُليم بالتوجّه إلى المغرب؛ للتخلّص منهم ومن شرّهم، وللانتقام بهم من الأمير المعزّ، العبْد اَبَق⁽²²⁾. وما لبث الأمير المعزّ أن غشيّه من الأعراب سيّلُ العرِم⁽²³⁾. واشتعلت بين الزّيريين والأعراب فتنة شوهاء، تخلّلتها وقائع شديدة. وعندما فشل الأمير المعزّ في مقاومتهم، وكفّ عدوانهم، انتقل، في آخر شعبان 449 هـ، إلى المهديّة. و« في أوّل يوم من رمضان، انتهت الأعراب القيروان، وخرّبتها، وكانت من أعظم مدن الدّنيا »⁽²⁴⁾.

3 - مرحلة المهديّة (449 - ؟هـ):

عندما انتقل الأمير المعزّ بن باديس إلى المهديّة، وأقام بها في حمى ابنه تميم، واليها، « أسقط من الشّمس في الميزان، وأهون من الغرعلَى القبان »⁽²⁵⁾، نقل إليها ابن رشيق أيضاً، « وأقام معه بها أنفّة من الجلاء، وإشفاقاً من فرقة الحبة والخلصاء »⁽²⁶⁾. وفيها قال، فيما أحسب، نونيّته، يرثي القيروان الّتي قضى بها أزيد من أربعين سنة من عمره. [البسيط]:

كَمْ كان فيها من كرامٍ سادّةٍ بيض الوجوه، شوامخ الإيمان.
وحينما كان المعزّ يقاسي الغصص ممّا أصابه وأصاب ملكه على أيدي الأعراب، بلغه أن أسطولا حربيّاً روميّاً يزحف لمهاجمة المهديّة، فزاد ذلك التّبأ نفسه مدراً، وصدره ضيقاً.

وأراد ابن رشيق الوقوف إلى جانب المعزّ، في ذلك الظرف الشّديد، مساعدته بما في وسعه، وبما يحسن، لمواجهة المحنة الجديدة، فقام ينشده قصيدة، ولم ينتبه إلى سوء استهلالها وقبحه، وهو قوله⁽²⁷⁾ [الوافر]:

تَثَبَّتْ، لَا يُخَامِرُكَ اضْطِرَابٌ فَقَدْ خَضَعْتَ لِعِزَّتِكَ الرَّقَابُ!.

وعندما سمع الأمير العزّ هذا المطلع حنق حنقا شديداً، وزجره قائلاً: «مَهْ، أ حَالْ عَهْدُكَ أَمْ تَغْيِرْ، أَمْ أَدْبَرَ بِكَ الزَّمَانُ فِي مَا أَدْبَرَ؟. ويلك! متى عَهْدْتَنِي لَا أَتَثَبَّتْ؟. إذا لم تجفنا إلا بمثل هذا فمالك لا تسكت عنا. وأمر بالرُّقْعَةِ التي كانت فيها القصيدة فمزَّقَتْ، ولم يقنعه ذلك حتّى أدنوها إلى السُّرَّاج فأُحْرِقَتْ»⁽²⁸⁾.

لقد خانت ابنَ رشيق حقّاً الصَّنْعَةُ والكياسةُ في ذلك الوقت - وهو الأديب والعالم بالشُّعر -؛ لأنّ مطلع قصيدته سمج معنيّ وأسلوباً هذا من جهة، ولأنّ الملوك لا يحلو لهم الاستمتاع بالشُّعر - في الغالب - إلاّ في المسارِّ من جهة أخرى. والمعرّ لم يكن مستعدّاً نفسياً، في ذلك الظّرف، لسماع مثل ذلك البيت وقبوله، ولو كان الباعث على قوله المودّة والإخلاص. بل لعلّه زهد - بعد تقدّمه في السنّ، ومحنّته بالهلاليّين - في الشُّعر وفرسان الأقلام والكلام، وأصبح يرى أنّ الأجدى له والأولى به الاعتناء برؤساء السيّوف والعوالي.

4 - مرحلة مازر بصقليّة (؟ - 456هـ):

خرج ابن رشيق، بعد تلك الضّحة الّتي أثارها مطلع قصيدته، وقد أذهله ما سمع، وما رأى « لَا يَعْقِلُ مَا يَطَأُ، وَلَا يَدْرِي أَيْنَ يَنْكُفِي »⁽²⁹⁾. ثمّ غادر المهدية والمغرب عامّة، واتّجه إلى جزيرة صقليّة، واستقرّ بمدينة مازر (Mazara)، واتّصل بأمرها عبد الله بن منكوت⁽³⁰⁾، وحظي بتقريبه وإكرامه.

ولم يطب المقام لابن رشيق في مدينة مازر؛ لأنّ صقليّة كانت تموج، في ذلك الوقت، بالفتن والاضطرابات السياسيّة؛ بعد انهيار إمارة بني أبي الحسين الكلبيّين⁽³¹⁾، ورغب في الانتقال إلى الأندلس، والاتصال بالمعتضد⁽³²⁾، ملك إشبيلية، ولكن الأقدار لم تقض له بذلك. وأمضى آخر أيّامه في مازر، إلى أن وافاه الحِمَامُ سنة 456هـ.

وهكذا، كان لهجرة بني هلال وبني سُليم إلى المغرب أسوأ الآثار على الحركة الثقافية عامة،

والأدبية منها على الخصوص، في الإمارة الزيرية؛ لأنّ عنادل الشعر والبيان أزعجتها الفتنُ والحُنُ، فهجرت دَوْحُ الأمير المعزّ بن باديس، وآثرت الغناء والتطريب تحت سموات أخرى، وفي أيك ممالك بعيدة، أكثر أمناً، واستقراراً، ودراً.

ثالثاً - ديوانه وأغراضُ وشعره وخصائصه :

يعدّ ابن رشيق القيروانيّ من شعراء المغرب الأدنى (إفريقية) المشهورين في عصر الإمارة الزيرية الصنهاجية. وقد خصّه ابن بسّام الأندلسيّ (ت542هـ) بترجمة ضافية في كتابه " الذخيرة "، نوّه فيها بطول بابه في العلم، والنظم، والنثر، والتقد، وجودة الخطّ. يقول ابن بسّام في ديباجة تلك الترجمة : « وكان أبو عليّ [ابن رشيق] ربوة لا يبلغها الماء، وغاية لا ينالها الشّدُّ والإرخاء. محلّه من العلم محلّ الصّواب من الحكم، واقتداره على النثر والنظم اقتدار الوتر على السّهم. إن نظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلّل العلم وكبر، أو نقد سعى الطبع الصّقل وحفّد، أو كتب سجد القلم الضّئيل واقترب (...). وما أبو عليّ؟. شعاع القمر، وحديث السّمّر، ومعجزة الخبر والخبر. فات الأوائيل والأواخر، وأسكت المناظر والمماثل » (33).

يدلّ هذا القول - بلا ريب - على براعة ابن رشيق في الشعر والنثر، وحذقه في التقد، وغير ذلك. ولكنه لا يبرأ - في نظري - من مبالغة في المدح والإطراء، وبالأخصّ فيما يتعلّق بقدرة ابن رشيق على قرض الشعر. ويرجع سبب ذلك إلى أسلوب ابن بسّام المتصنّع، وكلفه الشّديد بالسّجع. ولذلك فإنّ القول يعكس - في نظري - فصاحة ابن بسّام، وتبحّره في الثقافة العربية أكثر ممّا يعكس اقتدار ابن رشيق على نظم الشعر، كما تظهره أشعاره.

1- ديوانه :

نعلم من إشارة ذكرها ابنُ خَلِّكان (ت 681هـ) في ترجمة موفق الدين ابن يعيش التَّحوي⁽³⁴⁾ أنَّ ابن رشيق القيروانيَّ خَلَفَ ديوان شِعْر. ولكن لم يعثر له أحدٌ على أثر. والمؤكد أنَّه ضاع مع ما ضاع من المخطوطات المغربية. ولم ينبج من عوادي الزَّمن من شعره سوى القصائد والقطع الشَّعرية التي دوَّنها هو بنفسه في مؤلَّفاته المحقَّقة والمطبوعة، كالعمدة، وأنموذج الزَّمان، وقُرَاضة الذَّهب، وما استحسَّنه بعضُ أصحاب كتب التَّراجم من شعره، فأثبتوه في مصنَّفاتهم لجودته. حظي شعر ابن رشيق القيروانيَّ، في عصرنا، بثلاث محاولات لِجَمْعِهِ⁽³⁵⁾:
نُضْ للأولى الأستاذ حسن حُسَني عبد الوهَّاب، وذلك في كتابه "بساط العقيق في حاضرة القيروان وشاعرها ابن رشيق"، وقام للثانية الأستاذ عبد العزيز الميمني الرَّاجُكُوتِيّ، في كتابه "الثَّنْف من شِعْر ابن رشيق وزميله ابن شَرَف"، وتولَّى المحاولة الثالثة الدكتور عبد الرَّحْمَن ياغي، الذي استقصى شعر ابن رشيق، ونشر ما تَلَقَّطَهُ منه تحت عنوان "ديوان ابن رشيق القيرواني" ⁽³⁶⁾.

2 - أغراضُ شِعْره :

أودَّ أن أبدأ هذا المبحث بإيراد أبيات لابن رشيق، يبيِّن فيها موقفه من الشَّعر، وبعض دواعي قوله، وخطره، ومنافعه وآثاره، داعياً الآباء، في آخرها، إلى حضِّ أبنائهم على رواية الشَّعر، وتوجيهه إلى نفوسهم؛ لأنَّه «عَقَّارُ طِبِّ المُهْجِ». يقول⁽³⁷⁾ [مجزوء الرَّجَز]:

الشَّعْرُ شَيْءٌ حَسَنٌ	ليس فيه مِنْ حَرَجٍ
أقلُّ ما فيه ذَهَابٌ	بُ الهَمُّ عن نَفْسِ الشَّجِي
يُخَكِّمُ في لَطَافَةٍ	حَلُّ عَقُودِ الحُجَجِ
كَمْ نَظْرَةٍ حَسَنَها	في وَجْهِ عُذْرٍ سَمِجِ
وَحُرْقَةٍ بَرَّدَها	عن قلبٍ صَبَّ مُنْضَجِ
ورحمةٍ أوقَعَها	في قلبٍ قَاسٍ حَرَجِ

وهكذا، كان لهجرة بني هلال وبني سُليم إلى المغرب أسوأ الآثار على الحركة الثقافية عامة،

والأدبية منها على الخصوص، في الإمارة الزيرية؛ لأنّ عنادل الشعر والبيان أزعجتها الفتن والحُنْ، فهجرت دَوْح الأمير المعزّ بن باديس، وآثرت الغناء والتطريب تحت سماءات أخرى، وفي أيك ممالك بعيدة، أكثر أمناً، واستقراراً، ودراً.

ثالثاً - ديوانه وأغراضه وشعره وخصائصه :

يعدّ ابن رشيق القيروانيّ من شعراء المغرب الأدني (إفريقية) المشهورين في عصر الإمارة الزيرية الصنهاجية. وقد خصّه ابن بسّام الأندلسيّ (ت542هـ) بترجمة ضافية في كتابه " الذخيرة "، نوّه فيها بطول بابه في العِلْم، والتّظْم، والتّشر، والتّقْد، وجودة الخطّ. يقول ابنُ بسّام في ديباجة تلك الترجمة : « وكان أبو عليّ [ابن رشيق] ربوة لا يبلغها الماء، وغاية لا ينالها الشّدُّ والإرخاء. محله من العِلْم محلّ الصّواب من الحُكْم، واقتداره على التّشر والنّظْم اقتدارُ الوتر على السّهم. إن نظم طاف الأدب واستلم، أو نثر هلّل العِلْم وكبّر، أو نقد سعى الطّبع الصّقيل وحفّد، أو كتب سجد القلم الضّئيل واقترب (...). وما أبو عليّ؟. شعاعُ القمر، وحديث السّمَر، ومعجزة الخبر والخبر. فات الأوائِل والأواخر، وأسكت المناظر والمماثل » (33).

يدلّ هذا القول - بلا ريب - على براعة ابن رشيق في الشّعْر والتّشر، وحذقه في التّقْد، وغير ذلك. ولكنه لا يبرأ - في نظري - من مبالغة في المدح والإطراء، وبالأخصّ فيما يتعلّق بقدرة ابن رشيق على قرض الشّعْر. ويرجع سبب ذلك إلى أسلوب ابن بسّام المتصنّع، وكلفه الشّديد بالسّجع. ولذلك فإنّ القول يعكس - في نظري - فصاحة ابن بسّام، وتبحّره في الثّقافة العربيّة أكثر ممّا يعكس اقتدار ابن رشيق على نظم الشّعْر، كما تظهره أشعاره.

وحاجة يسرها عند غزال غنج
 وشاعر مطرح مغلق باب الفرج
 قربه لسائيه من ملك متروج
 فعلموا أولادكم عفار طب المهج

هذا هو - إذن - رأي ابن رشيق فيما يتصل بقول الشعر، وروايته، وبعض بواعثه وفوائده.

وأما فيما يتعلق بروعة الشعر أو سحر بيانه، فلم يكن يخفى عنه - بلا شك - أنه إنما يتوقف أساساً على موضوع الشعر، ومعانيه، وحسن تأليفه، وما عليه من بهجة وطلاوة. وأنه يتوقف أيضاً على مدى احتفاء القارئ به، وتفاعله معه، وما يحدث في نفسه من أثر. ولذلك كان الشعر الرائع والرائق - عنده - هو « ما أطرب، وهز النفوس، وحرك الطباع »⁽³⁸⁾.

وإذا نحن تصفحنا ديوان ابن رشيق نجد أنه لم يخرج في شعره - تقريباً - على تلك الدوافع النفسية، والأهداف المتنوعة التي حددها في منظومته الجيمية السابقة.

وهذه أهم الأغراض الشعرية التي قال فيها، متبوعة بأجود ما له فيها من أشعار :

كان للتغزل نصيب وافر في شعر ابن رشيق. نجد بعضه في مقدمات مدائحه، على عادة الشعراء القدماء الفحول، ونجد بعضه الآخر في قصائد وقطع مفردة.

ولا عجب أن يكون للتغزل الحظّ الأوفى في شعر ابن رشيق أو غيره من الشعراء؛ وذلك لأنه يرتبط بعاطفة إنسانية نبيلة، ثم لأنّ النصّ الشعري الغزلي ينبثق - في الغالب - من إحساس صادق، وتجربة واقعية معيشة.

إنّ ما يلفت الانتباه - حقاً - في تغزل ابن رشيق هو ذلك « التباين »

الواضح بين التصوص، سواء من حيث الموضوع والمعاني، أو من حيث الاتجاه؛ بحيث نجد فيه التغزل بالنساء، والتغزل بالغلمان، والتغزل العفيف المهذب، والحسي المادّي.

فمن تغزله العفيف الذي يبدو فيه سموه الروحي واضحاً، كما تظهر فيه فكرة « عبادة » المرأة جليّة، قوله من قصيدة مشهورة (39) [البسيط]:

مِنْ قُضِبِ نَعْمَانَ، أَمْ مِنْ كُتْبِ يَرِينَ؟ الله في دَمِ عُشَّاقٍ مَسَاكِينِ

(.....)

و وَرَدُ حَدِّكَ يُغْرِي بِي وَيُغْرِي	فُتُونُ عَيْنِكَ تَنْهَانِي وَتَأْمُرُنِي
دُنْيَا، لَمَّا بَعْتُ فِيكَ الدِّينَ بِالْذُّونِ	أَمَّا لَنْ بَعْتُ دِينِي وَاشْتَرَيْتُ بِهِ
مَنْ سَحَرَ مُقْلَتَهُ آيَاتُ يَاسِينَ	اسْتَغْفَرُ اللَّهَ، لَا وَاللَّهِ مَا نَفَعْتُ
تُرَاهُ صَوْرَ ذَاكَ الْجِسْمِ مِنْ طِينِ	سُبْحَانَ مَنْ خَلَقَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً
إِنْ كَانَ عِنْدَكُمْ صَبْرٌ فَوَاسُونِي	يَا أَهْلَ صَبْرَةٍ وَالْأَحْبَابُ عِنْدَكُمْ
وَاللَّهُ قَدْ قَالَ: ﴿ لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ ﴾	إِنِّي أَدِينُ بِدِينِ الْحُبِّ وَبِحُكْمِ

(.....)

لو كنتُ أملكُ نفسي، يا مُعَذِّبَهَا قَرَّبْتُهَا لَكَ فِي بَعْضِ الْقَرَايِينِ.

ومن حقّ القارئ أن يتساءل - بعد هذا - عن الميزة المكيّنة التي احتلتها تلك الحسنة الملهمة في قلب الشاعر، بعد أن غدت وثناً، وأصبح حبّه لها ديناً.

ومن تغزله قوله (40) أيضاً [الطويل]:

بِنَفْسِي مِنْ سُكَّانِ صَبْرَةٍ وَاحِدٍ	هُوَ النَّاسُ، وَالْبَاقُونَ بَعْدَ فُضُولٍ
عَزِيزٌ لَهُ نَصْفَانِ: ذَا فِي إِزَارِهِ	سَمِينٌ، وَهَذَا فِي الْوَشَاحِ نَحِيلٌ
مَدَارُ كَوْسِ اللَّحْظِ مِنْهُ مُكْحَلٌ	وَمَقْطُفٌ وَرَدَ الْخَدُّ مِنْهُ أُسَيْلٌ.

وفي قوله : « هو النَّاسُ، وَالْبَاقُونَ بَعْدَ فُضُولٍ » معنى رائع عجيب؛ لأنّ الحبيبة أصبحت تمثّل النَّاسَ جميعاً.

ومن شعره أيضاً قوله يصف امرأة أدماء أو سوداء، داعياً إياها إلى التّيه
على البيض؛ لأنّ السّواد موجود في أهمّ أعضاء الإنسان : العين والقلب. يقول⁽⁴¹⁾
[مخّلع البسيط] :

دَعَا بكَ الحُسْنُ فاستجِبي يا مِسْكُ في صِبْغَةٍ وطِيبِ
تِيهِي على البيض واستطيلي تِيهَ شَبَابٍ على مَشِيبِ
ولا يَرْعُكَ اسودادُ لَوْنِ كَمَقْلَةِ الشَّادِنِ الرِّيبِ
فإنّما الثُّورُ عَنْ سَوَادٍ في أعْيُنِ النَّاسِ والقلوبِ.

ومن نصوص ابن رشيّق الجيّدة في غرض اللّهُو والمجون قوله يصف ليلة
أنس، جاد بها الدّهر الغشوم⁽⁴²⁾ عليه [الطويل] :

وَمِنْ حَسَنَاتِ الدَّهْرِ عِنْدِي لَيْلَةٌ مِنَ العُمْرِ، لم تُتْرَكْ لِأَيَّامِهِ ذَبَا
خَلَوْنَا بِهَا نَفْيَ الكَرَى عن عِيُونِنَا بِلَوْلُؤَةٍ مَلُوءَةٍ ذَهَباً سَكْباً
وَمِلْنَا لِتَقْبِيلِ الثُّغُورِ وَلَثْمِهَا كَمِثْلِ جُنُوحِ الطَّيْرِ تَلْتَقِطُ الحَبَا.
لقد عدّ ابن رشيّق تلك اللّيلة، التي خلا فيها بمن يحبّ مع حضور الخمر،
حسنَةً من حسنات الدّهر، محتّ ذنوبَ الأيّام وسيئاتها... وفي الأبيات - كما
يلاحظ - براعة في إصابة الغرض، وسموّ في التعبير.

ومن خمريات ابن رشيّق قوله مبيناً مذهبه في الشُّرب، وأنّ الخمر الصّرفة
أو التي تمزج برضاب
غادة حسناء أحبّ إليه وأشهى من الممزوجة، التي كُسِرَتْ سَوْرُثُهَا بالماء.
يقول⁽⁴³⁾ [الكامل] :

قَدَرُ المَدَامَةِ فوق قَدَرِ المَاءِ فَارْغَبْ بِكَاسِكَ عن سَوَى الأكْفَاءِ
مَا لي وَمَزْجُ الرَّاحِ إلَّا في فَمِي بالرَّيْقِ من فَمِ غَادَةٍ حَسَنَاءِ
ذَاكَ المِزَاجُ، وإنّ تعدّاني الَّذِي في المُزْنِ، من ذِي رَقَةٍ وصفاءِ
أشهى، وأبلغ في الفؤاد مَسَرَّةً من غيرهِ، وأدبُ في الأعضاءِ

لي الصَّرفُ، إنْ فَرَحَ التَّدْمُ، ولم أكنْ مُسْتَأْثِرًا فِيهَا عَنِ التَّدْمَاءِ.

ولابن رشيق في المدح قصائد كثيرة. رفع بعضها إلى الأمير المعزّ، ورفع بعضها الآخر إلى أعيان إمارته. ومن أبرزهم الوزير أبو الحسن عليّ بن أبي الرّجال (ت 425هـ/1033م).

وقد اتّخذ ابن رشيق المدح، في البداية، وسيلة لبلوغ البلاط الزيّريّ الصنهاجيّ، ونيل الخطوة عند الأمير المعزّ ووزيره ابن أبي الرّجال، ثم أداة اعتراف بإحسانهما، وما لهما عليه من أيادٍ بيض، ولتوطيد علاقته بهما، والتمكين لنفسه عندهما.

وترجع معاني مدائحه - في الأغلب - إلى الفضائل الأربعة المحمودة، التي عدّها قُدّامة بن جعفر (ت 337هـ) أمّهات فضائل النّاس⁽⁴⁴⁾، وهي: العقل، الشجاعة، والعدل، والعفة.

وعلى الرّغم من أنّ ابن رشيق كان يرى أنّ أحذق الشّعراء من «يُعمل الشّعْر كسوة للممدوح، لائقة بشكّله، مناسبة لقدره، لا تضيق عنه ولا تضطرب»⁽⁴⁵⁾، فإنّ مدحه لم يسلم من المبالغة والمُبالقة. ومن مدائحه قوله يصف شجاعة الأمير المعزّ، وقوّة جيشه، وعظّمته، وتقتيله الأعداء ملوكًا وأبطالًا⁽⁴⁶⁾ [البسيط] :

لُذْنُ الرّمّاح، لما يَسْقِي أسنّتها من مهجة القَيْل، أو من مهجة البطل
لو أوركْت من دم الأعداء سُمْرُقْنَا لأورقت عنده سُمْرُ القنا الذُّبُلِ
إذا توجّه في أولى كتائبه لم تفرّق العين بين السّهْل والجبل
فالجيشُ يُنفُضُ حوليه أسنّته نفْضَ العُقَابِ جناحيها من البَلَلِ.

ولابن رشيق في وصف عناصر الطّبيعة الحيّة والصّامّة قصائد ومقطوعات كثيرة. ومن جيّد شعره في هذا المضمار، قوله يصف شجرة نارنج⁽⁴⁷⁾ [الطّويل] :

وَدَوْحَةٍ نَارُجٍ بُهْتِنَا بِحُسْنِهَا وَقَدْ نُشِرَتْ أَغْصَانُهَا لِلتَّأْوُدِ
 وَنَارُنْجُهَا فَوْقَ الْغُصُونِ كَأَنَّهُ نَجُومٌ عَقِيقٍ فِي سَمَاءِ زَبَرْجَدٍ.
 وقوله أيضاً يصف زرافة، أتت في هدية من أحد الخلفاء الفاطميين إلى
 الأمير المعز بن باديس (48) [الكامل] :

وَأَتَتْكَ مِنْ كَسْبِ الْمُلُوكِ زَرَّافَةٌ شَتَّى الصِّفَاتِ لِكَوْنِهَا أَتْبَاءُ
 جَمَعَتْ مُحَاسِنَ مَا حَكَتْ فَتَنَاسَبَتْ فِي خَلْقِهَا، وَتَنَافَتْ الْأَعْضَاءُ
 تَحْتَثُّهَا بَيْنَ الْخَوَافِقِ مِثْلِيَّةٌ بَادٍ عَلَيْهَا الْكِبَرُ وَالْحَيَلَاءُ
 وَتَمُدُّ جِيدًا فِي الْمَوَاءِ يَزِينُهَا فَكَأَنَّهُ تَحْتَ اللَّوَاءِ لِـسَوَاءِ
 حُطَّتْ مَا خَيْرُهَا، وَشُرِّفَ صَدْرُهَا حَتَّى كَأَنَّ وَقُوفَهَا إِفْعَاءُ
 وَكَأَنَّ فِيهِرَ الطَّيْبِ مَا رَجَمَتْ بِهِ وَجْهَ الثَّرَى لَوْ لُمْتَ الْأَجْزَاءُ
 وَتَخَيَّرْتَ دُونَ الْمَلَابِسِ حُلَّةٌ عَيَّتْ بِصَنْعَةٍ مِثْلَهَا صَنْعَاءُ
 لَوْنًا كَلَّوْنَ الذَّبَلِ إِلَّا أَنَّهُ حَلِيٌّ وَجَزَعٌ بَعْضُهُ الْحَلَاءُ
 أَوْ كَالسَّحَابِ الْمُكَفْهَرَةِ خِيطَتْ فِيهَا الْبُرُوقُ وَمِيزُهَا إِمَاءُ
 أَوْ مِثْلُ مَا صَدَدَتْ صَفَائِحُ جَوْشَنِ وَجَرَى عَلَى حَافَاتِهَا جِلَاءُ
 نَعْمَ التَّجَافِيفُ الَّذِي أَدْرَعَتْ بِهِ مِنْ جِلْدِهَا لَوْ كَانَ فِيهِ وَقَاءُ.

ويكمن إبداع ابن رشيق في وصف الزرافة في « أنه غير مسبوق إليه، ولا
 يقال عنه : مقلد فيه، كمثل ما يمكن أن يقال في وصف الخيل أو الإبل، أو ما ألفت
 العرب أن تقول فيه » (49).

والرثاء في شعر ابن رشيق قليل. ولعل أفضل مرثيه، وأولاهها بالذكر
 والتنويه، نونيته الطنّانة، التي قالها في رثاء القيروان وبكائها، بعد التكبّة الفادحة التي
 أصابتها على أيدي أعراب بني هلال وبني سليم. وكان ابن رشيق ممن شهدوا تلك
 الفتنة الشوهاء، واكتووا بنارها.

تتألف المراثاة من ستة وخمسين (56) بيتاً. وهي أطول قصائده.
ومطلعها (50) [الكامل] :

كَمْ كَانَ فِيهَا مِنْ كِرَامٍ سَادَةٍ بِيضِ الْوُجُودِ، شَوَامِخِ الْإِيمَانِ.
ومنها يصف فظاظة الأعراب، وفظاعة أعمالهم :

حَتَّى إِذَا الْأَقْدَارُ حُمَّ وَقُوعُهَا وَدَنَا الْقَضَاءُ لِمُدَّةٍ وَأَوَانٍ
أَهْدَتْ لَهَا فِتْنًا كَلِيلَ مُظْلِمٍ وَأَرَادَهَا كَالنَّاطِحِ الْعِيدَانِ
بِمَصَائِبٍ مِنْ فَادِعٍ وَأَشَائِبٍ مِمَّنْ تَجَمَّعَ مِنْ بَنِي دَهْمَانٍ
فَتَكُوا بِأَمَّةٍ أَحْمَدٍ، أَتْرَاهُمْ أَمِنُوا عِقَابَ اللَّهِ، فِي رَمَضَانَ
نَقَضُوا الْعَهْدَ الْمُرِمَاتِ، وَأَخْفَرُوا ذِمَّةَ الْإِلَهِ، وَلَمْ يُفُوا بِضَمَانٍ
فَاسْتَحْسَنُوا غَدَرَ الْجَوَارِ، وَآثَرُوا سَيِّئِ الْحَرِيمِ، وَكَشَفَةَ النَّسْوَانِ
سَامُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ، وَأَظْهَرُوا مُتَعَسِّفِينَ، كَوَامِنَ الْأَضْغَانِ
وَالْمُسْلِمُونَ مَقْسَمُونَ، تَنَالَهُمْ أَيْدِي الْعَصَاةِ بِذِلَّةٍ وَهَوَانٍ
مَا بَيْنَ مُضْطَهَّدٍ وَبَيْنَ مُعَذَّبٍ، وَمُقْتَلٍ ظُلْمًا، وَآخِرَ عَانٍ
يَسْتَصْرِخُونَ، فَلَا يُغَاثُ صَرِيحُهُمْ حَتَّى إِذَا سَيَّمُوا مِنَ الْإِرْتَانِ
فَادَاوَا نَفُوسَهُمْ، فَلَمَّا أَنْفَدُوا مَا جَمَعُوا مِنْ صَامِتٍ وَضَوَانٍ
وَاسْتَخْلَصُوا مِنْ جَوْهَرٍ، وَمَلَابِسٍ، وَطَرَائِفٍ، وَذَخَائِرٍ، وَأَوَانٍ.

ثم يذكر خروج القرويين، في أسوأ الأحوال، طلباً للأمن:

خَرَجُوا حُفَاةً، عَائِذِينَ بِرَبِّهِمْ مِنْ خَوْفِهِمْ، وَمَصَائِبِ أَلْوَانٍ
هَرَبُوا بِكُلِّ وَلِيدَةٍ، وَفُطَيْمَةٍ، وَبِكُلِّ أَرْمَلَةٍ، وَكُلِّ حَصَانٍ
وَبِكُلِّ بَكْرٍ، كَالْمَهَاةِ عَزِيزَةٍ تَسِي الْعُقُولَ بِطَرَفِهَا الْفَتَّانِ
خَوْدٌ، مُبْتَلَّةُ الْوَشَاحِ، كَأَنَّهَا قَمَرٌ يَلُوحُ عَلَى قُضَيْبِ الْبَنَانِ.

ويصف، بعد ذلك، أثر التكة على جامع عقبة بن نافع، أعظم معالم
القيروان الدينية :

والمسجد المعمور، جامع عقبة خرب المعاطن، مظلم الأركان
قفر، فما تغشاه بعد جماعة لصلاة خمس، لا ولا لأذان
بيت به عبد الإله، وأبطلت، بعد الغلو، عبادة الأوثان
بيت بوحي الله كان بناؤه نعم البناء، والمبتنى، والباني
أعظم بتلك مضيئة ما تنجلي حسراتها، أو ينقضي الملوان.

وتعدّ هذه المرتبة من أجود ما قال الشعراء العرب في رثاء المدن. وتمثل مع
ما قال غيره من الشعراء القيروانيين، في سقوط القيروان ونكبتها، كابن شرف
والحصري الضرير وغيرهما، اتجاهاً جديداً في الرثاء المغربي القديم. هذا بالإضافة إلى
قيمتها التاريخية والثوقية.

إن الإحساس بالكبر والوهن، والتحسر على انقضاء الشباب وأيامه
الحميدة العجيبة وترّ حسّاس في أعماق كلّ إنسان تجاوز مرحلة الشباب، وغشيّه
المهرم والضعف. ولذلك كان بكاء الشباب موضوعاً إنسانياً، عبّر عنه الأدباء
بأقوال صادقة ومؤثرة.

لابن رشيق في هذا الغرض أكثر من نصّ. من ذلك قوله - مثلاً - وقد أفرعه
ظهور الشيب في رأسه، قبل الأوان⁽⁵¹⁾ [الخفيف] :

غَنَنِي، يَا مُجَوِّدَ الْخَلْقِ عِنْدِي : حَيِّي نَجْدًا، وَمَنْ بِأَكْنَفِ نَجْدِ
وَاسْقِنِي مَا يَصِيرُ ذُو الْبُخْلِ مِنْهَا حَاتِمًا، وَالْجَبَانُ عَمَرُوا بَنَ هِنْدِ
في زمانِ الشَّبَابِ عاجِلِي الشَّيْبِ، فهذا « أوائل الدّنْ دُرْدِي ».

وقد أحسن ابن رشيق - كما يلاحظ - تضمين المثل العربيّ في البيت. فجاء
المثل في موقعه رائعاً.

ومن شعره قوله أيضاً في أثر كُرُور الأيام والليالي، أو فعل الدهر، ذلك
الأرودُ المُسْتَبَدِّ، في جسده وقواه، وحركته⁽⁵²⁾ [المتقارب] :

إِذَا مَا خَفَفْتُ كَعَهْدِ الصَّبَا أَبَتْ ذَلِكَ الْخَمْسُ وَالْأَرْبَعُونَ
وَمَا ثَقُلْتُ، كَبِيرًا، وَطَأْتِي وَلَكِنْ أَجْرٌ وَرَائِي السَّنِينَا.

وفي قوله « أَجْرٌ وَرَائِي السَّنِينَا » صورة فنية رائعة للتعبير عن ثقل السنين ووطأتها.
ولعل أجود ما لابن رشيق في هذا الموضوع قصيدته البائية التي نشر فيها، حقًا،
بصدق تلهفه، وشدة حسرته على شبابه الذاهب (53) [البسيط] :

حَسْبِي وَحَسْبُكَ مِنْ لَوْمٍ وَتَشْرِيبِ	بَانَ الَّذِي كَانَ يُعْرِيبُنِي وَيُعْرِيبُنِي
أَمَّا الشَّبَابُ فَقَدْ وَدَعْتُ لَذَّةَ	إِلَّا أَبَاطِيلَ أَحْلَامٍ وَتَشْيِيبِ
عَرَفْتُ حَالَ اللَّيَالِي فِي تَصَرُّفِهَا	وَشَافَهْتُنِي أَفْوَاهُ التَّجَارِيبِ
وَذَلَّلَ الدَّهْرُ صَعْيِي فَاسْتَكْنْتُ لَهُ	وَطَالَ مَا كُنْتُ مِنْ تِلْكَ الْمَصَاعِبِ
قَرَعْتُ سِنِّي عَلَى مَا فَاتَنِي نَدَمًا	مِنْ الشَّبَابِ، وَمَنْ بِاللَّهْوِ لِلشَّيْبِ
فَقَدْ رَدَدْتُ كَوْسَ اللَّهِوِ مُتَرَعَّةً	عَلَى السُّقَاةِ، وَكَانَتْ جُلَّ مَشْرُوبِي
وَرَبَّمَا أَذْكَرْتُنِي صَبَوَةَ سَلَفَتِ	وُرُقُ الْحَمَامِ إِذَا غَنَّتْ بِتَطْرِيبِ
أَنْزَعُ السَّمْعَ وَالْعَيْنَيْنِ فِي نَعَمٍ	وَمَنْظَرٍ غَايَةِ بِالْحُسْنِ وَالطَّيِّبِ
مِنْ كُلِّ لَافِظَةٍ بِالْأَدْرِ، بِأَسْمَةٍ	عَنْهُ، مُحَلَّلَةٍ نَوْعٍ مِنْهُ مَثْقُوبِ
أَيَّامَ تَصَحُّبِنِي الْغَزْلَانُ أَنْسَةً	هَذَا عَلَى أَنِّي أَعْدَى مِنَ الذَّيْبِ.

ومن أجمل ما قال ابن رشيق في حسن ظنه بالله، ورجاء رحمته الواسعة يوم
القيامة (54) [البسيط] :

إِذَا أَتَى اللَّهُ يَوْمَ الْحَشْرِ فِي ظُلُلٍ	وَجِيءَ بِالْأُمَمِ الْمَاضِينَ وَالرُّسُلِ
وَحَاسِبِ الْخَلْقِ مَنْ أَحْصَى بِقُدْرَتِهِ	أَنْفُسَهُمْ، وَتَوَفَّاهُمْ إِلَى أَجَلِ
وَلَمْ أَجِدْ فِي كِتَابِي غَيْرَ سَيِّئَةٍ	تَسْوُؤُنِي، وَعَسَى الْإِسْلَامُ يَسْلَمُ لِي
رَجَوْتُ رَحْمَةَ رَبِّي، وَهِيَ وَاسِعَةٌ	وَرَحْمَةُ اللَّهِ أَرْجَى لِي مِنَ الْعَمَلِ.

3 - خصائص شعره :

كان ابن رشيق القيروانيّ من الأدباء الذين أزانوا بلاط الأمير المعزّ بن باديس بالقيروان. قرض الشعر في موضوعات كثيرة. في شعره الغثّ والسّمين؛ لاختلاف المقامات والمناسبات.

وهذه بعض الملامح الفنيّة العامّة التي يتميّز بها أكثر شعره :

أ - كثرة القطع وقلة القصائد الطوال: وترجع هذه السّمة - على الأرجح - إلى سببين: أولهما أنّ ابن رشيق لم يكن شاعراً مطبوعاً ومحترفاً. وثانيهما - أنّ طبيعة الموضوعات التي قال فيها لا تقتضي الإطالة⁽⁵⁵⁾.

ب - الوحدة الموضوعية: وأقصد بها أنّ ابن رشيق كان يتطرّق في النّصّ الشعري الواحد إلى موضوع واحد، أو فكرة واحدة. فلم يكن يستطرد، أو يتمطّط في أشعاره، وإنّما كان يقصد إلى موضوعه قصداً. والاستثناء الوحيد، نجده في مدائحه خاصة، حيث نراه ينجح فيها إلى التّطويل، فيستهلّها بالتّسيب - على عادة الشعراء القدماء الفحول، ويتأنّق في تدبيحها.

ج - بساطة اللغة ووضوحها: وأعني بهذا أنّ معجم ابن رشيق الشعري كان يتميّز - في الأغلب - بالبساطة والوضوح، فلا نعثر على الألفاظ الحوشيّة وغير المألوفة إلا في نصوص قليلة من شعره.

د - الاستعانة بالتراث الثقافي: كان ابن رشيق يستعين كثيراً بالتّراث الثقافي العربيّ الإسلامي، فيقتبس منه حيناً، ويضمّنه أحياناً أخرى؛ وذلك لإبراز أفكاره، وتوضيح معانيه. وكذلك لتمتين أسلوبه وتنميّقه. وأهمّ مناهله في ذلك: القرآن الكريم، والشعر، والأمثال، وأعلام التاريخ المشاهير، والمعالم الحضارية، وغيرها.

هـ - الجهد والتصنّع: يشعر القارئ المتمرّس، وذو الذّوق الأدبي الرّفيع بأنّ ابن رشيق كان ينظم بجهد ومشقّة، ويتصنّع أحياناً. ولذلك يفتقر شعره - إلّا الأقلّ منه - إلى الانسياب والتدفق، وإلى التّضارة والمائيّة. ويعود سبب ذلك - على

الأرجح - إلى أن ابن رشيق كان عالم لغة، وناقد شعر، في المقام الأول، ولم يكن شاعراً موهوباً مطبوعاً. ولذلك حالت "بضاعته" اللغوية والتقديّة بينه وبين الإحسان في صناعة الشعر. وضعف أدب العلماء، وبرودة شعرهم، وتعقيد ظاهرة معروفة - كما نعلم - وأمر مشهور. أقرّ به ابن رشيق نفسه، وذكره كثير من العلماء، منهم العلامة ابن خلدون (ت 808هـ).

ومن أخبار ابن رشيق أنّه حاول معارضة إحدى قصائد أبي الطيّب المتنبي، فصنع قصيدة «ثُمَّ حَكَّمْ نَقْدَهُ، وَرَضِي بِمَا عِنْدَهُ (...) وَعَلِمَ أَنَّ الْإِحْسَانَ كَنْزٌ لَا يُوجَدُ بِالطَّلَبِ...» (56).

مصادر البحث ومراجعته وحواشيه

- (1) ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزّمان في شعراء القيروان. جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي وبشير بكوش. الدّار التونسية للنشر، تونس، و المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ط1، 1406هـ/1986م، ص439.
- (2) المُحمّديّة: مدينة جزائريّة، اسمها اليوم المَسِيلَة. تقع في منطقة الحُصْنَة، من بلاد الرّاب. تولّى بناءها عليّ بن حمدون، المعروف بابن الأندلسيّ سنة 313هـ، بأمر من محمد بن عبد الله المهدي؛ ولذلك عُرفت باسمه.
- (3) إنباه الرّواة على أنباه النّحاة. تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم. دار الكتب المصريّة، القاهرة، ط1، 1369هـ/1986م، 1: 298.
- (4) ابن خلكان، وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان. تحقيق الدكتور إحسان عبّاس. دار الثّقافة، بيروت، ط1، 1969، 2: 86.
- (5) ياقوت الحمويّ، معجم الأدباء. مطبوعات دار المأمون، القاهرة، (سلسلة الموسوعات العربيّة)، 8: 111.
- (6) الحضرة: الحاضرة، والمقصود بها مدينة القيروان، عاصمة الإمارة الزّيريّة، قبل نزوح الأعراب إلى المغرب.

- (7) أنموذج الزّمان: 439-440.
- (8) الذّخيرة في محاسن أهل الجزيرة. تحقيق الدكتور إحسان عبّاس. الدّار العربيّة للكتاب، ليبيا-تونس، ط2، 1981م، 597:2/4.
- (9) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزّمان. تحقيق الدكتور إحسان عبّاس. دار الثّقافة، بيروت-لبنان، ط1، 1968م، 85:2.
- (10) الوافي بالوفيات. اعتناء رمضان عبد التّوّاب. دار فرانز شتاينر، فيسبادن-ألمانيا: 1399هـ/1979م، 11:12/6.
- (11) شذرات الذهب في أخبار من ذهب. مكتبة القدسيّ، القاهرة، 1350هـ، 3:463.
- (12) صلاح الدّين الصّفدي، جنّان الجناس. تحقيق سمير حسن حلي. دار الكتب العلميّة، بيروت-لبنان، 1407هـ /1987م، ص31.
- (13) تاريخ العلّامة ابن خلدون. مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناي، بيروت-لبنان، ط3، 1968م، 1:1069.
- (14) هو أبو محمّد عبد الكريم بن إبراهيم النّهشليّ. شاعر وناقد. من مؤلّفاته: الممتع في علّم الشّعْر وعمله، توفي سنة 405هـ. راجع: أنموذج الزّمان، ترجمة رقم 34.
- (15) المُعجب في أخبار المغرب. ضبط وتصحيح محمّد سعيد العريان ومحمّد العربيّ العلمي. مطبعة الاستقامة، القاهرة، ص356.
- (16) أنموذج الزّمان: 158.
- (17)، (18)، (19) المصدر نفسه: 440-441.
- (20) إنباه الرّوّاة 1: 304.
- (21) هو معادّ (المُستنصر بالله) بن عليّ (الظاهر لدين الله)، الخليفة الفاطميّ الثّامن. حكم من 427هـ/1036م إلى 487هـ / 1094م.
- (22) تاريخ العلّامة ابن خلدون، 6: 31.

- (23) الذخيرة 2/4: 614.
- (24) ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب. تحقيق ج.س. كولان وإ. ليفي بروفنصال. دار الثقافة، بيروت - لبنان، ط2، 1400هـ/1980م، 1: 294.
- (25) المرجع السابق، 2/4: 614.
- (26)، (27)، (28)، (29) المرجع نفسه، 2/4: 598.
- (30) يرد اسم والد الأمير القائد عبد الله بن منكوت في مراجع أخرى منكود، أو منكود.
- (31) بنو أبي الحسين الكلبيين عائلة توارث أفرادها حكم صقلية مدة طويلة، من أشهرهم الأمير أبو الفتح يوسف، الملقب بثقة الدولة (379-388هـ).
- (32) هو عباد بن محمد بن عباد، أحزم ملوك بني عباد أصحاب إشبيلية وأشدّهم بأساً. حكم من 433 إلى 461 هـ. للتوسّع راجع: الذخيرة 1/2: 23-41.
- (33) الذخيرة 2/4: 597-598.
- (34) وفيات الأعيان 7: 52.
- (35) والمحاولة الرابعة قام بها صاحب البحث، وستصدر قريباً تحت عنوان ديوان ابن رشيق القيرواني.
- (36) ظهرت طبعته الأولى سنة 1961.
- (37) ديوان ابن رشيق القيرواني. جمعه ورّبه الدكتور عبد الرحمن ياغي. دار الثقافة، بيروت، ط1، 1961م.
- (38) العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده. تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد. دار الجليل، بيروت - لبنان، ط5، 1401هـ/1981م، 1: 128.
- (39) الذخيرة 2/4: 611.
- (40) الديوان: 145.

- (41) المصدر نفسه: 36.
- (42) المصدر نفسه: 32-33.
- (43) المصدر نفسه: 22-23.
- (44) نقد الشعر. تحقيق الدكتور محمد عبد المنعم خفاجي. دار الكتب العلمية، بيروت- لبنان، ص 96.
- (45) أنموذج الزمان: 326.
- (46) الديوان: 152-153. وانظر: أنموذج الزمان: 441.
- (47) المصدر نفسه: 60.
- (48) المصدر نفسه: 17-18.
- (49) الدكتور عبد الرؤوف مخلوف، ابن رشيق القيرواني. القاهرة، ط 1، 1964م. (نوابغ الفكر العربي؛ 32)، ص 252.
- (50) المصدر السابق: 204-212.
- (51) المصدر السابق: 62.
- (52) المصدر السابق: 200.
- (53) الذخيرة 2/4: 609-610. وانظر الديوان: 18. وفيه خمسة أبيات فقط منها.
- (54) الديوان: 153-154.
- (55) الدكتور عبد العزيز نبوي، محاضرات في الشعر المغربي القديم. ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، ط 1، 1983م، ص 150.
- (56) الذخيرة 1/4: 24-25.
- (57) الديوان: 204-212.